

الفصل الأول

الجزائر تحت الحكم العثماني

بعد سقوط الأندلس في يد القوى الصليبية ، حاول البرتغاليون والإسبان السيطرة على شمالي أفريقيا ، وطمس عروبة أهالي هذه البلاد وتطهيرهم .
وقد وقف أهالي هذه المناطق لهذه المحاولات بالمرصاد وقاموا بمجاهدة البرتغاليين والإسبان ، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين "عروج" وأخوه "خير الدين بربروسا" ، و"حسن باشا" و"صالح ريس" وغيرهم فقد كانوا مثلاً أعلى في البطولة والفداء في المعارك التي خاضوها ضد التكتلات الصليبية التي أرادت النيل من بلادهم لدرجة أن شخصية مثل "عروج" ذاع اسمها بين الأهالي بعد أن حقق أمانيتهم في استرداد الموانئ التي نجح الإسبان في الاستيلاء عليها ، كما استطاع أن يؤسس حكومة عسكرية تحت قيادته إنضم إليها العديد من القبائل وسكان المدن وتمكن من خلالها الاستيلاء على أقاليم الجزائر الواحد بعد الآخر ، يضاف إلى ذلك أنه قام بتوحيد جيود مراكب الجهاد التي كانت تجاهد للقوى للصليبية في البحر المتوسط .

ونتيجة لاستيلاء عروج في إحدى المعارك مع الإسبان خلال حصار مدينة تلمسان فقد تولى شقيقه "خير الدين بربروسا" Barberoussa أى صاحب اللحية للحمراء أمور الجهاد . ونتيجة لضعف موقف خير الدين بعد مقتل أخيه خاصة وأنه كان في حاجة إلى العتاد والسلاح فقد استتجد بالدولة العثمانية وهي وقتذاك أكبر قوة إسلامية لها من ماضيها القريب في خدمة الإسلام والدأب على توسيع رقعته في شرق أوربا ، ولها من أسباب القوة ، وخاصة بحريتها النامية في شرق البحر المتوسط بإمكانها من اقتحام حابة الصراع الصليبي في الحوض الغربي من البحر وتبديل مصائره لصالح

الإسلام والمسلمين . فأرسل "خير الدين" وفدا إلى السلطان "سليم الأول" برئاسة "أبو العباس أحمد بن القاضي" الذي اشتهر بجهاده ضد الإسبان لتصوير أوضاع المسلمين المتردية في الجزائر ، وعرض أبعاد القضية عليه ، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسى بالدولة العثمانية ، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الدينى ضد الإسبان خصوصا وأن النزاع بين القبائل أدى إلى توغل الإسبان فى السواحل الجزائرية .

وبعد أن وصل الوفد إلى استنبول قابل الوزير الأعظم ثم السلطان الذى رحب بوضع الجزائر تحت السيادة العثمانية ، وأرسل إلى "خير الدين" فرمانا سلطانيا منحه لقب باشا ، وعينه حاكما عثمانيا على الجزائر برتبة "بكلربيك" أى أمير الأمراء وهو من أعظم ألقاب الدولة كما أرسل إليه ألفين من الجنود الإنكشارية وبعض الأسلحة والذخائر ، وسمح له بجمع ما يشاء من المتطوعين الراغبين فى الانضمام إلى صفوف المجاهدين ، يضاف إلى ذلك أنه أعطى "خير الدين" لقب قبودان وهو رتبة عسكرية تمكنه من قيادة الأساطيل العثمانية . وتمنحه العديد من الاختصاصات العسكرية التى تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة فى بلاده . ونتيجة لذلك دخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية ، وتحقق لبربروسا الحصول على القوات اللازمة لصد الهجوم الإسبانى على بلاده وأصبحت الجزائر مركزا عثمانيا لمجابهة الإسبان ومخططاتهم ، وقاعدة لتوسيع رقعة الحكم العثمانى فى شتى أنحاء بلاد الغرب ، وإلى جانب ذلك فقد نودى على منابر مساجدها باسم السلطان العثمانى ، وصارت العملة تسك باسمه .

وقد قام "خير الدين" باستحداث بعض التنظيمات التى تكفل قبول سكان الجزائر للحكم العثمانى كما تمكنه من التصدى للإسبان فعمل على بقاء حكم البلاد الداخلى لأتباعه حيث قسمها إلى قسمين قسم شرقى يشمل المناطق

الجبالية التي تقطنها القبائل وتمتد إلى الحدود التونسية ووضع على رأسها الشيخ "أحمد بن القاضي" وقسم غربى يمتد من مدينة الجزائر إلى حدود دولة بنى زيان ووضع على رأسه السيد "محمد بن على" فى حين ترك لمدينة الجزائر السلطة العليا ومباشرة أمور الحرب والسياسة ، وكان على رأسها "خير الدين" الذى حكم البلاد حكما شوريا ، فأسس إدارة لدراسة القوانين واللوائح وكل ما يصدر به أوامر ، كما كون مجلسا من كبراء رجال الدولة وقادة الجيش لإدارة شئون البلاد ، وإلى جانب ذلك فقد قرب أهل الجزائر إليه للتعرف على رغباتهم ومشاكلهم .

وخلال ذلك حاولت إسبانيا زعزعة استقرار الوجود العثمانى فى الجزائر عن طريق مساندة بعض المنافسين لخير الدين لكن محاولاتها بلاءت بالفشل كما برزت قدرة "خير الدين" فى التصدى للأسطول الإشباني الذى واصل غاراته البحرية على الجزائر فشن عليه هجوما غنم على أثره العديد من السفن . وأسرى بعض ملاحها .

وبعد أن هبطت حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا فى شمالى أفريقيا، واطمأن العثمانيون لإبعاد أخطار الغزو الإشباني عن تلك الأقطار الإسلامية بدأت سلطة الدولة فى التراخى وقنع السلطان العثمانى بمضامير السيادة فقط طالما استطاعت تلك الولايات أن تحفظ كيانها من الضغط الأجنبى بوسائلها الخاصة ، وقنعت الدولة بالتضامن الإسلامى العام الذى كان كفيلا بالإبقاء على روابط الولاء . وقد يرجع أسباب تراخى سلطة الدولة العثمانية فى الجزائر إلى بعد المسافة التى تفصل بينها وبين عاصمة الدولة ، وإلى ضعف البحرية العثمانية خاصة بعد هزيمة الأسطول العثمانى فى معركة "ليبانو" عام ١٥٧١ ومن ثم لجأت الجزائر إلى تنظيم أداة الحكم وإدارة الحرب فبني على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها فى مواجهة الدول الأوروبية ، كما لجأت الدول الأوروبية إلى عقد معاهدات مع حكام الجزائر

والتي كان من أشهرها معاهدة التحالف بين فرانسوا الأول وخير الدين
بربروسا (١٥٢٤) وانضمام السفن الجزائرية إلى السفن الفرنسية في حرب
ضد شارل الخامس ملك إسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

وبدأت المؤامرات الداخلية تدبر ضد "خير الدين" والعثمانيين فسعى
سلطان تونس إلى عقد محالفة مع سلطان تلمسان ضد "خير الدين" والوجود
العثماني في الجزائر ، ولكن هذا التحالف لم يستمر طويلا حيث استطاع
"خير الدين" هزيمة منافسيه وتوطيد نفوذه في غرب الجزائر . أما في شرق
الجزائر فقد حاول الحفصيون إثارة المشاكل ضد "خير الدين" ولكنه تمكن من
تأديبهم وخاض ضدهم العديد من الحروب التي انتهت بانتصاره وتوسيع
دائرة نفوذه فامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب حتى واحات
الميزاب الموعلة في الصحراء ، كما تمكن خير الدين من توجيه ضربات
للسواحل الإسبانية .

وإلى جانب ذلك فقد اهتم "خير الدين" بإعادة تنظيم إقليم الجزائر فنظم
موارد الخزينة من ضرائب ومغانم الزكاة والعشر والجزية والخراج وما
يدفعه رؤساء القبائل والعشائر من العوائد والهدايا والخمس من المغنمات
البحرية ، كما أنشأ مجلسين استشاريين للشورى وأمور الديوان .

وظلت إيالة الجزائر العثمانية تثير قلق الإسبان ، وتهدد مواصلاتهم كما
ظلت بمثابة الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر
المتوسط والقاعدة التي ارتكز عليها العثمانيون لتحرير مدن وبلدان المغرب
العربي من أيدي الإسبان .

ونتيجة لانشغال "خير الدين" بقيادة الأسطول العثماني في البحر
المتوسط تولى نائبه "حسن أغا" إيالة الجزائر وأخذ يتصدى لقوات
الإمبراطور "شارل الخامس" التي عملت على إيجاد تحالفات مع بعض
الكيانات المحلية وعقدت معاهدات تبعية مع ملوك وأمراء بني حفص ، وبني

ريان وبعض مشايخ القبائل ، كما أخذ يتصدى للحمولات العسيرة . . .
أرسلها الإسبان لطرده الأتراك العثمانيين من الجزائر .

وقد عمل حسن أغا على دعم قوة الجزائر فى مواجهة الإسبان ،
وأتباعهم فى الداخل عمل على توطيد الأمن ، وإلى إتفاف الأهالى حوله .
كما عزز نفوذه جنوبا بعد أن نجح فى إخضاع القبائل هناك . وإلى جانب
ذلك فقد قام بتجهيز أسطول هاجم به السواحل الإسبانية ، وأثار الرعب بين
سكانها . فى جمادى الأولى ٩٤٦هـ / سبتمبر ١٥٣٩ ألق بأسطوله
المكون من ثلاث عشرة سفينة تقل ألف وثلاثمائة رجل نحو جبل طارق .
ونجح فى احتلال هذه المنطقة والاستحواذ على ما فيها من غنائم ، كما توغل
فى جهات الساحل الإشباني الجنوبي وغنم العديد من المتاع والأسرى . كلى
ذلك دفع الإمبراطور "شارل الخامس" إلى محاولة الاستيلاء على الجزائر ،
وفصلها عن الدولة العثمانية بشتى الطرق . فعرض على "خير الدين" حاكم
شمال أفريقيا تحت السيادة الإسبانية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل خاصة
وأن "خير الدين" أبلغ السلطان العثماني بالأمر . ونتيجة لذلك أعد "شارل
الخامس" حملة كبيرة تحركت إلى الجزائر ، وتمكنت من الاستيلاء على
مينائها والاتفاف حول المدينة لاحتلالها من الخلف ، مما أصاب أهل البلاد
بالهلع . وفى أعقاب ذلك أرسل الإمبراطور الإشباني يطلب من "حسن أغا"
التسليم ، ولكنه رفض ذلك ، وأعلن أن رجاله سيحاربون إلى آخر رجل .
ولم تلبث الأمور أن تغيرت حيث هبت عاصفة هوجاء اجتاحت شواطئ
الجزائر ، وصحبها هطول أمطار استمرت عدة أيام فسد خلالها مفعول
البارود الذى فى حوزة الإسبان ، كما إقتلعت الرياح خيام جنود الحملة ،
وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها ، وقذفت
الأمواج الصاخبة ببعض السفن الأخرى إلى الشاطئ ، وهجم عليها المدافعون
المسلمون ، واستولوا على ذخائرها .

وفى وسط هذه الأحوال نجح "حسن أغا" فى مفاجأة العدو ، والالتفاف حوله مما أدى إلى فشل محاولات الإمبراطور الإسباني فى مهاجمة مدينة الجزائر خاصة وأن تساقط الأمطار والعواصف الجوية لم تكن فى حسبانته . وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة القوات الغازية فأفنوا جزءا كبيرا منها ، مما أجبر المهاجمين على الانسحاب وكان له أبلغ الأثر فى ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين ، مما دفع السلطان العثماني "سليمان القانوني" إلى منح "حسن أغا" وأعوأنه العديد من الألقاب والنياشين .

وبعد وفاة "حسن أغا" فى رمضان ٩٥٢هـ / نوفمبر ١٥٤٥م تولى حكم الجزائر "حسن بن خير الدين بربروسا" الذى تمكن من التصدى للنكتلات الصليبية ، ومنعها من احتلال مدن الساحل فى وهران ، والمرسى الكبير ، وبجاية . وذلك بفضل مهارته فى الأمور الحربية البرية والبحرية ، كما عمل على تنظيم إيلاته إداريا وعسكريا ، فقام بالقضاء على تمرد القبائل القاطنة فى المناطق الغربية من الجزائر ، وتنظيم الجيش ، وتحقيق الانضباط فيه ومع ذلك فإن المؤامرات التى حيكت ضد "حسن باشا" لدى السلطان العثماني أدت إلى عزله من منصبه وتولية "صالح ريس" حاكما على الجزائر فى محرم ٩٥٩هـ / يناير ١٥٥٢م . وقد عمل "صالح ريس" على تأمين إيلاله الجزائر من الداخل والتصدى للحكومات المحلية المتعاونة مع الإسبان ومن أجل ذلك قاد حملات عسكرية لوضع حد لهذه الأمور ، ونتيجة لتركز فكرة الجهاد الإسلامى فى ذهن "صالح ريس" فقد قام بمحاصرة سواحل الإسبان ، وعمل على إيجاد جبهة إسلامية موحدة فى المغربين الأوسط والأقصى لمحاربتهم ، كما نجح فى إنهاء حكم الأسرة الزيانية فى تلمسان ، وضم هذه المنطقة إلى إيلاله الجزائر العثمانية وفى ربيع الأول ٩٦٣هـ / يناير ١٥٥٥م شن "صالح ريس" هجوما على انماركز الإسبانية استطاع خلاله انتزاع منطقة "تجاية" من الإسبان ، كما أرسل قواته لتحرير وهران ولكن القدر لم يمهله فتوفى فى رجب ٩٦٤هـ / يوليوز ١٥٥٦م . وفى أعقاب ذلك شهدت إيلاله

الجزائر أوضاعا مضطربة ، استغلها السعديون للاستيلاء على تلمسان ولكن جهودهم لم تكفل بالنجاح .

ومن أجل إعادة الأمن والاستقرار في الجزائر عين السلطان العثماني "حسن بن خير الدين" بكسر بيك على الجزائر ، فطارد جيش السعديين المحاصر لتلمسان ، وحاول أن يحرر وهران والمرسى الكبير ولكنه فشل في ذلك .

ونتيجة لتدهور أمور ولاية الجزائر خاصة بعد انتشار الأوبئة والمجاعة وتمرد الجند ، والخلافات القائمة بين البحارة والإنتشارية والثورة التي قامت في قسطنطينية أمر السلطان العثماني بتولية "علج" (١) على حاكم على الجزائر فوصلها في رمضان ٩٧٥هـ / مارس ١٥٦٨ . وقد شهدت ولاية الجزائر في عهده استقرارا واضحا ، كما شهدت نشاطا ملحوظا ضد الإسبان ولتوحيد جهود المسلمين في مواجهة الصليبيين رأى "علج على" ضرورة تحقيق وحدة بلاد المغرب العربي تحت الحكم العثماني ومن أجل ذلك إهتم بتوجيه الجهاد العثماني لطرد الإسبان من بلاد المغرب العربي عن طريق وضع مخطط لمساعدة الموريسكيين في ثورتهم

(١) كلمة عربية جمعها "علوج" بضم العين واللام للدلالة على أصل من يحملها بأنه أجنبي فقد كان البحارة الجزائريون من أجناس متعددة ، ولكن الشرط الضروري للانخراط في تلك البحرية الجزائرية هو اعتناق الإسلام ، وكان يأتى على أولئك الذين يغيرون دينهم ويعتقون الإسلام - ومعظمهم من الأسرى - اسم العلوج وكان هؤلاء العلوج يحصلون على أرقى المناصب .

انظر محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، بيروت ١٩٧٩ ص ٩٣ .

ضد الإسبان والتوجه إلى تونس لتحريرها من أيديهم ثم جمع الجيوش لإشادة فتح الأندلس وضم المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية وبالنسبة لتونس فقد توجه "علاج على" لفتحها وتمكن من هزيمة القوات الحفصية المؤيدة من قبل الإسبان ، ودخول المدينة في نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩ حيث رحب به الأهالي وأخذ البيعة للسلطان العثماني "سليم الثاني" وضرب السكة باسمه . وبالنسبة للفترة من ١٥٨٨-١٦٥٩ فقد تميزت بالصراع بين قوى ثلاثة هي الباشا ممثل السلطان ، والإنكشارية ، وأمراء البحر وقد ساند الإنكشارية أمراء البحر من أجل الحصول على الغنائم مما أضعف من سلطة الباشا . وفي عام ١٦٥٩ تم خلع الباشا العثماني ، وانتخاب الداي^(١) رئيس الديوان حاكما على الجزائر مما أدى إلى تحكم قادة الجند في الدايات ، وقد استاء الأهالي من هذه الفوضى ، وساندوا أمراء البحر الذين فرضوا أحد رجالهم على الأوجاق في عام ١٦٧١ ووضعوا حدا لسيطرة الإنكشارية . ومنذ علم ١٧١١ اغتصب داي الجزائر صلاحيات الباشا العثماني . وظل الدايات ينتخبون من بين أمراء البحر وبمرور الوقت أصبح الداي يحكم دون مشورة الديوان ، وأصبح حاكما مستقلا لا سلطان للدولة العثمانية عليه سوى السيادة الإسمية .

وخلال ذلك أصبحت السلطة الحقيقية في أيدي رؤساء القوات غير النظامية ، ولم يصبح للسلطان العثماني سوى السيادة الإسمية فقط وأصبح الحاكم الملقب بالداي هو المتقلد الرسمي لأمر الحكم ونتيجة للسلطات

(١) الداي كلمة تركية تعني (خال) ولكنها فيما يبدو لم تستخدم للدلالة على عمل وظيفي إلا في الجزائر وتونس ، وكانت في بادئ الأمر لقباً شرفياً ثم تحول لوظيفة عسكرية في الجيش الإنكشاري .

الواسعة التى أعطيت للدايات تحولت الجزائر تدريجيا إلى دولة شبه مستقلة فقد كان من حق الدايات عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان العثمانى ولم تكن إيرادات البلاد يرسل منها شئ إلى الآستانة بل كانت تصرف معظمها داخل الجزائر وخلال القرن الثامن عشر شهدت الجزائر انهيارا اقتصاديا بسبب كساد الحركة التجارية نتيجة لحصار بعض الدول الأوروبية للشواطئ الجزائرية ، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات وبعض رجال الجيش من جهة ، وقراصنة البحر من جهة أخرى مما أدى إلى اضطراب الأمن ، وفقدان الدايات للسيطرة على أمور بلادهم .

ونتيجة لضغوط قباطنه البحر الجزائريين على السفن الأوروبية التى تمر بشواطئ بلادهم وفرضهم الأتاوات المستمرة عليهم ضاقت بعض هذه الدول من ذلك الوضع فأرسلت إسبانيا حملة فى عام ١٧٧٥ للاستيلاء على ثغر الجزائر التى كانت تعده مكن الخضر على سفنها فى البحر المتوسط ، ولكن هذه الحملة فشلت فى الاستيلاء على الثغر الجزائرى رغم النيران الحامية التى صببها عليه . ومع ذلك لم تتوقف المحاولة فقد حاول الإسبان تكوين حلف أوروبى ضد الجزائر ، ولكن محاولتهم فشلت مما جعل الدول الأوروبية تتنافس فيما بينها لكسب ود حكام الجزائر وعقد امتيازات سياسية وتجارية معهم وإلى جانب ذلك فقد حاولت الولايات المتحدة إقامة تحالف أمريكى أوروبى ضد الجزائر ، ولكنها فشلت مما أدى إلى رغبتها فى شراء السلام بالمال .

ولنا هنا أن نتساءل هل الجهاد البحرى الإسلامى ، وفرض الأتاوات على السفن الأوروبية التى تخالف المسلمين فى عقيدتهم الدينية تسمى قرصنة . الواقع أن تاريخ الجزائر الحضارى تعرض لكثير من التشويه فالمؤرخون الأوروبيون يصرون على اعتبار البحارة المسلمين الذين جاهدوا لوقف الهجمات الصليبية على بلادهم أمثال "عروج" وأخيه "خير الدين

بربروسا و"صالح ريس" على أنهم قراصنة مع أن هؤلاء كان مثلاً أعلى في البطولة والفدائية فقد جسد "عروج" و"خير الدين" في نظر الجزائريين روح المواجهة والاستبسال في المعارك التي خاضوها دفاعاً عن إسلام وعروبته شمالي أفريقيا ، واستطاعوا جمع صفوف سائر مسلمي هذه البلاد لمواجهة أعداء الإسلام ومن المؤسف حقاً أن نرى بعض المؤرخين والباحثين المسلمين قد ساءروا المؤرخين الأوروبيين في هذا الرأي الخاطئ ، ووصفوا عمليات الجهاد الديني البحري التي قام بها هؤلاء البحارة ضد السفن المسيحية التي دأبت على التعرض للسفن الإسلامية بأنها عمليات قرصنة رغم خطئها إذ يجب أن نطلق عليها عملية الجهاد البحري الإسلامي ، فليس من المنطقي أن نعتبر الرجال الذين يخرجون على سفنهم المسلحة للدفاع عن السواحل الإسلامية في شمالي أفريقيا والعمل على حماية الممتلكات والأرواح الإسلامية بأنهم قطاع طرق وقراصنة ولاهم لهم سوى السلب والنهب وخنق التجارة الدولية ، وعرقلة قيام علاقات سلمية بين الشعوب ومن الغريب حقاً أن نجد أفكاراً خاطئة حول هذه الموضوع لا تزال رائجة يرددها متخصصون أكاديميون . الواقع أن هجوم السفن الإسلامية ضد السفن البحرية الصليبية كان جهاداً بحرياً إسلامياً خاصة وأنه كانت هناك حروب مستمرة مع هذه الدول .

وقد استند المسلمون إلى مبدأ الجهاد الإسلامي في محاربة أعداء الإسلام سواء على الأرض أو في البحر . لذلك فإن ما قام به رجال البحر الجزائريون ضد سفن إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا كان جهاداً بحرياً إسلامياً جاءت بدايته رداً على اعتداءات تلك القوى الصليبية على المسلمين في إسبانيا وفي شواطئ بلاد المغرب . كما أن ما قاموا به يمكن إعتباره من قبيل الدفاع عن النفس ضد أطماع القوى الصليبية ، يضاف إلى ذلك أنه من المعروف أن القرصنة - إذا صح ذلك التعبير - لم تكن مقصورة على مسلمي شمال أفريقيا ، ولكنها كانت سلاحاً استخدمه المسلمون وغير

المسلمين ، فكما كانت السفن الإسلامية تعمدى على سفن الدول الأوروبية ، فإنها كانت سلاحا استخدمه الأوروبيون ضد بعضهم البعض وضد المسلمين أيضا فقد استخدمه الإنجليز ضد سفن خصومهم الإسبان ، وباركته الحكومة الإنجليزية ، كما شمره البرتغاليون ضد السفن الإسلامية بعد موقعة ديو البحرية . وعلى أى حال فقد استطاع قباطنة البحر المسلمون الدفاع عن الشمال الإفريقى ضد العدوان الإسبانى المتجالف مع فرسان القديس يوحنا حتى لاح لهم أن من الخير أن ينضموا تحت لواء الدولة العثمانية ففعلوا وتحول الجهاد الإسلامى فى منطقة المغرب العربى من جهاد فردى ، إلى جهاد دولة تمتلك من الأساطيل ما تستطيع به ردع أى عدوان صليبي ضد أى دولة إسلامية . وظلت الروح الصليبية تؤثر فى العلاقات بين ولايات المغرب العربى والدول الأوروبية ، حتى بدأت المشروعات التى وضعت للتدخل فى شئون هذه الولايات تبدو للعيان ، فنتيجة لتردى العلاقات بين فرنسا والجزائر فى عهد إمبراطورية نابليون راودت بونابرت فى عام ١٨٠٨م فكرة الاستيلاء على الجزائر فكلف أحد ضباطه بوضع خطة عسكرية لمشروع حملة فرنسية على الجزائر وقد قام هذا الضابط بكتابة تقرير للسلطات الفرنسية أوضح فيه إمكانية الاستيلاء على الجزائر ، وأشار إلى الأماكن التى تصلح لإنزال الجنود الفرنسيين ، والطرق والآبار التى يمكن أن يستخدمها رجالات الحملة .

وعلى الرغم من أن هذا التقرير قد حفز نابليون على الاستيلاء على الجزائر فإن الظروف الدولية فى ذلك الوقت لم تسمح له بتحقيق هذه الأطماع التى بدأت تثبت فى أذهان ساسة فرنسا الذين كانوا يتحينون الفرص المناسبة لذلك .

وقد انتهزت فرنسا فرصة فقدان الدولة العثمانية لأسطولها فى معركة "توارين البحرية" ١٨٢٧م ، فحاولت اقتطاع الجزائر من أملاك العثمانيين

خاصة وأنها كانت ترغب في الحصول على الموارد الأولية اللازمة لصناعاتها ، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها وتوظيف رءوس أموالها .

وقد استغلت فرنسا فرصة المشادة الكلامية التي حدثت بين داي الجزائر وقنصلها هناك نتيجة لمماطلتها في دفع المستحقات التي عليها للجزائر نظير الحبوب التي استوردتها منها ، فأرسلت في يونيو ١٨٢٧ أربع سفن حربية إلى الشواطئ الجزائرية ، ووجهت إنذارا إلى الداي كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من إهانة ، وتقديم كافة الضمانات التي تحول دون تعرض السفن الفرنسية لأى إجراءات تفتيشية من السفن الجزائرية ، وأن تتمتع فرنسا فى الجزائر بحق الدولة الأكثر رعاية ، وأن يعلن الداي أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر وأنه ليس له أى حق قبلها وقد هددت فرنسا بإعلان الحرب على الجزائر فى حالة رفضها لشروط الإنذار ، ومع ذلك فقد رفض الداي الإنذار الفرنسي ، وأصر على التمسك بموقفه ، وأخذ يتهكم على المطالب الفرنسية بقوله ثم يبق إلا أن يطلبوا إمراى " .

ونظرا لأن قيام فرنسا بعملية حربية ضد الجزائر أصبحت شبه مؤكدة أبلغت فرنسا الدولة العثمانية بأن والى الجزائر الذى أظهر عداا واضحا للفرنسيين بتحقيقه لقنصل فرنسا ، وزفضه تقديم الترضية العلنية قد جعل الحرب محققة بين فرنسا والجزائر . ولما كانت الدولة العثمانية مشغلة فى مشاكلها فى جزيرة المورة ، ولا تتوى إضافة أعباء أخرى تضاف إلى همومها فقد تباطأت فى حسم الموقف بالطريقة المناسبة مما أعطى لفرنسا فرصة الانفراد بالأمر ، وخلال هذه الفترة بدأت فرنسا فى البحث عن حلول أخرى تجنبها نفقات الحرب ، وفى نفس الوقت تجعل المسلمين يقاتلون بعضهم بعضا فاقترح "دورفتى Drovetti ' قنصل فرنسا فى الإسكندرية فيام

محمد على والى مصر بحملة على الجزائر بمساندة فرنسا لتأديب الداي والقضاء على حكومته ، واحتلال الجزائر وضمها إلى أملاكه على أن يكون لحليفته فرنسا إمتيازات واسعة فى هذه البلاد .

ولما فوَّتح محمد على فى الأمر تردد فى البداية خشية فقدان ثقة العالم الإسلامى فيه وقال للفتى فى فرنسا "أنتم مسيحيون أما نحن والجزائريون فمسلمون ، وسماع أقوال كذلك ونحن ذوو دين ، وأمة وشريعة ودولة واحدة ، لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا" ولكن سرعان ما عدل محمد على عن رأيه ووافق على فكرة القيام بحملة لتأديب الداي بشرط أن تدفع له فرنسا مبلغا ماليا ، ودعمًا بحريا يمكنه من إعادة بناء أسطولها الذى تحطم فى موقعة نفارين البحرية عام ١٨٢٧م .

وفى محاولة من محمد على لتكشف الموقف أرسل إلى الداي برسالة ينصحه فيها ويحذره من العواقب الوخيمة اذا أصر على موقفه المعادى لفرنسا ، وكان رد الداي عليه فيذهب محمد على ليأكل الفول .

وحتى يأخذ مشروع محمد على بالحملة على الجزائر شكلا رسميا لا تعترض بريطانيا أو غيرها عليه رأت فرنسا ضرورة أخذ موافقة السلطان العثمانى على المشروع وعندما تسرب الخبر إلى الإنجليز اعترضوا عليه وحرصوا السلطان العثمانى ضده ، كما حذرت بريطانيا محمد على الذى بدأ يرتبط بالمصالح الفرنسية من الإقدام على هذا العمل وإلى جانب ذلك فقد ثارت الدول الأوروبية ضد هذا المشروع كما عارضت الدولة العثمانية إمتداد نفوذ محمد على إلى شمالى أفريقيا وإزاء هذه العقبات أغضبت فرنسا أعينها عن هذا المشروع ، وظلت تتحين الفرص المواتية للقيام بنفسها بحملة عسكرية ضد الجزائر والانفراد باحتلالها وقد جاء الوقت المناسب لذلك عندما انشغلت بريطانيا بالانقلاب النيابى الذى حدث فيها خلال ذلك الوقت وانشغلت روسيا وبروسيا والنمسا بالثورات التى اندلعت فى إيطاليا وبولندا .

فى تلك الفترة فتذرت فرنسا أمام الرأى العام الأوروبى أنها تدافع عن قضية أوروبية تدعم من خلالها قواعد العدل وأصدر ملكها قرارا فى ٧ فبراير ١٨٣٠ بإعلان التعبئة العامة ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بغزو الجزائر فابحر الأسطول الفرنسى من ميناء طولون فى شهر مايو من نفس العام وهو يحمل ٢٠ ألفا من رجال البحرية وقام الجيش الفرنسى المكون من ٣٧٦٠٠ مقاتل ، ٩١ قطعة مدفعية بغزو الجزائر ، وبدأ بإنزال فى سيدى فرج على بعد ٢٥ كيلو مترا غربى مدينة الجزائر ونتيجة لذلك عهد الداي إلى صيده إبراهيم أغا بقيادة القوات المدافعة . وقد دافع الجزائريون عن بلادهم دفاعا مجيدا استطاعوا خلاله حصر الزحف الفرنسى فى شريط ساحلى لا يشمل كل الشواطئ الجزائرية ، ومرت ثلاث سنوات دون أن يستطيع الفرنسيون من فرض سيطرتهم على أكثر من بضع موانئ ساحلية بينما أصبح داخل البلاد فى أيدي الزعماء ورؤساء القبائل .

وخلال الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ قامت سياسة فرنسا فى الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ثم تحولت هذه السياسة إلى التوغل فى الداخل ، فنجح الفرنسيون فى احتلال سيدى فرج والوصول إلى مدينة الجزائر ، ومهاجمة قلعة السلطان ، وحصن القصبة ، وإشعال النار فى مخازن الذخيرة ولما رأى الداي تحول الموقف فى غير صالحه حاول الحصول على صلح مشرف مع الفرنسيين ، ووسط فى ذلك قنصل بريطانيا ولكن الفرنسيين رفضوا هذه الوساطة وأصرروا على فرض شروطهم والتي كان من أهمها ما يلى :

١- تسليم حصن القصبة ، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها

• للفرنسيين

٢- ضمان القائد الفرنسى حماية الداي ، وممتلكاته الشخصية .

٣- ترك الحرية للدائى فى الإقامة أو الرحيل إلى أى مكان يريد .

٤- عدم اتخاذ أى إجراءات إنتقامية ضد الجنود الجزائريين . .

٥- كفالة حرية الجزائريين فى إقامة شعائرهم ، وصيانة ممتلكاتهم

وتجارتهم وصناعاتهم ، والمحافظة على أراضيم .

وقد وافق الدائى على هذه الشروط التى تضمنت متطلباته وقرر مغادرة مدينة الجزائر هو وأسرتة إلى نابلى بإيطاليا ، ونتيجة لذلك انتهت آخر مظاهر التبعية للعثمانيين فى الجزائر ووقعت أعباء المقاومة على الشعب الجزائرى نفسه ، وبدأ الاستعمار الفرنسى الرسمى فى الجزائر ، وقد حاولت الدولة العثمانية استرداد الجزائر بالطرق بالدبلوماسية ، وبذلت مساع عديدة لادى إنجلترا والنمسا من أجل استرجاع سيادتها على هذا الإقليم ولكنهما كانتا مشغولتين بالأوضاع الأوربية فى ذلك الوقت .

ومما سبق يتضح أن أهم العوامل التى ساعدت فرنسا على احتلال الجزائر هو تغير الموقف الدولى لصالحها ، هذا بالإضافة إلى دخول الدولة العثمانية فى دور الاضمحلال وعدم قدرتها على الصمود بنجاح أمام الهجوم الاستعمارى ، وعدم معرفة داي الجزائر بعواقب الأمور ، وبقرارات فرنسا العسكرية التى برزت مع النهضة الأوربية والتطور الصناعى فى أوربا . هذا عن تاريخ الجزائر منذ تبعيتها للدولة العثمانية حتى الاحتلال الفرنسى لها أما عن نظام الحكم العثمانى للجزائر ، ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيمكن حصرها فيما يلى :

١- نظام الحكم العثمانى فى الجزائر

لم يكن للدولة العثمانية خطة واحدة لإدارة حكم الجزائر بل تأثرت سياستها بصفة عامة بالأوضاع الداخلية التى كانت سائدة ، ويتطور الأحداث فى هذه البلاد فبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين بمبادرة من خير

الدين اعتبرت ولاية ممتازة ، وقاعدة لتوسيع الحكم العثماني في كافة بلدان المغرب العربي .

وقد شهدت الجزائر عمدة تغيرات خلال الحكم العثماني لها يمكن تقسيمها إلى أربع فترات وهي :

١- الفترة الأولى من ١٥١٨ - ١٥٨٨م وهي فترة حكم البيكرك بكوات وفيها كان الوالي بمثابة ممثل السلطان أو نائبه ، وكانت الجزائر تعد أقوى نيابات المغرب وكان البيكريك يعين من قبل السلطان ، وهو بدوره يشرف على الباشوات الحاكمين في إقليم طرابلس وتونس .

وبعد أن ألغت الدولة نظام البيكريك أصبحت الجزائر ولاية عادية ، وأصبحت كل ولاية قائمة بنفسها يتولاها الباشوات الذين تعينهم حكومة الباب العالي .

٢- الفترة الثانية ١٥٨٨-١٦٥٩م وفيها فقد الباشوات سيطرتهم الفعلية على الإنكشارية وانتقلت السلطة إلى الأوجاقات .

٣- الفترة الثالثة ١٦٥٩ - ١٦٧١م وفيها استأثرت الإنكشارية بالسلطة وعمت الفوضى وانتهى الأمر بتولي رجال البحر زمام الأمور وتم تسمية دهم تحت لقب "داي" .

٤- الفترة الرابعة ١٦٧١ - ١٨٣٠م وفيها استمر لقب الداى موجودا وإن أصبح دايات الجزائر يحملون لقب "الباشا" وإلى جانب ذلك فقد عاون حكام الجزائر في إدارة شئون البلاد مجلس استشاري ، هذا بالإضافة إلى الديوان الذي كان يتألف من نائب الحاكم الأعلى ويطلق عليه الكاهية . وقد تركزت مهمة الديوان في مساندة الحاكم في إدارة البلاد .

وبالنسبة للقوات العسكرية فقد كان يطلق عليها الحامية العثمانية وليس جنود الاحتلال وكان نواتها الجنود الإنكشارية الذين أرسلهم السلطان إلى

"خير الدين" أثناء فتح الجزائر والمنطوعون الذين يتم إرسالهم عن طريق الدولة العثمانية والذي لم يقتصر دورهم في الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن ، بل أخذ معظمهم يتدخل في إدارة شئون البلاد وفي حياة السكان بصورة واضحة مما أدى إلى إضعاف الحكومة والجيش معا وكان مقتل تركي واحد دافعا لحدوث مجزرة بين الأهالي إذا لم يقبض على القاتل .

ونتيجة لاستقرار هؤلاء الجند في الجزائر فقد بدأوا يتزوجون من الأهالي الذين كانوا يرحبون بذلك رغبة في الحماية الفعالة منهم ، كما عمل بعضهم بالتجارة وربحوا ثروات طائلة .

ومن الفرق العسكرية الشهيرة في الجزائر القولوغلي وهم المولدون من زواج الإنكشارية بنساء من الأهالي . وقد استخدم بعضهم في الوظائف المساعدة ، وفي أن يكونوا واسطة بين الحكومة والأهالي نظرا لمعرفتهم اللغة التركية ، وقد تميز هؤلاء يتولى العديد من السلطات وإلى جانب هؤلاء فقد كان هناك طائفة الرؤساء وهم رجال البحر الذين كانوا طليعة التدخل العثماني في الجزائر ولعبوا دورا بارزا في خلق النيابات العثمانية في شمال أفريقيا كما تركز نشاطهم ضد السفن الأوروبية وغنموا منها الكثير من الغنائم والأسرى . وكانت هذه العمليات تحمل طابع الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين . وبالإضافة إلى ذلك فقد كلف هؤلاء بحماية القطاع الغربي من البحر المتوسط ضد إسبانيا عدو الإسلام التقليدي في ذلك الوقت وقد نجح هؤلاء في مهمتهم إلى حد كبير نظرا لمهارتهم في قيادة السفن ، وانضباطهم ومعرفتهم لسواطي بلادهم الأصلية مما جعل لهم مكانة كبيرة في الجزائر خاصة وأن المغانم التي كانوا يحصلون عليها كانت أهم موارد البلاد .

وحول النظام الضريبي في الجزائر وغيرها من الولايات الغربية فقد كان محددا من قبل الدولة العثمانية ، وكان فرض الضرائب يتم بطريقة تعسفية ترهق السكان وتثير ردود فعل عنيفة ، ففي كل عام تخرج مفرزة

عسكرية تبدأ عملها ما بين شئري مايو وأكتوبر وتتجول في القرى والمناطق القبلية بهدف جمع الضرائب المقررة عليها ، وكانت عملية انتقال هذه المفوزة من منطقة إلى أخرى ، وعينية إطعام مابها من جنود وموظفين يتحملها الأهالي . وليس معنى ذلك أن كل القبائل كانت تسدد ما عليها من ضرائب فكانت هناك قبائل لا تدفع انضرائب نظرا لصعوبة فرض سلطة الحكومة عليها .

وكانت الضرائب على نوعين : ضرائب شرعية مثل الزكاة والعشور على المحاصيل وتحدد بحسب الأقدنة المزروعة وضرائب أخرى متعددة مثل العوايد وهي بمثابة هدايا إجبارية تقدم في المناسبات كالأعياد ، وهناك ضريبة "اللزمة" وكانت تؤخذ لتموين الجند في الأرياف ، وهناك ضرائب المكوس على الأسواق . وإلى جانب ذلك فكان سكان المدن يدفعون ضرائب على المهن التي يعملون بها

وكان تقدير الضرائب يجرى بطريقة عشوائية بهدف تأمين حاجات الإدارات الحكومية . فقد كن نظام الالتزام بؤرة لكثير من المفاصد والعيوب والنهب والتي تقع جميعها على عاتق الأهالي حيث كان الفلاح يدفع مئلى أو ثلاثة أمثال الضريبة المقررة عليه . وكان الامتناع عن الدفع يعد عصيانا كبيرا .

وإلى جانب ذلك فقد كانت خزينة البلاد تعتمد على موارد أخرى فقد كان لها حصة من الأتاوات التي يفرضها البحارة على الدول الأوربية مقابل حرية مرور سفنهم . كما كانت الهدايا التي يقدمها القناصل للدائسات أشبه بجزية سنوية .

وفي محاولة لضبط الأمور عملت الحكومة العثمانية على الاستعانة ببعض القوى المحلية لفرض سيطرتها على الولاية ، فاختاروا بعض الثمن وسموها بالمخزن ، وكلفوها بالمساعدة في انقيام بأعمال الشرط و...

القبائل العاصية التي ترفض دفع الضرائب وذلك في نظير بعض الامتيازات التي تمنحها لها ،

كما أنشأت الحكومة ما يسمى "بالسمول" (جمع سمالا) وهي جماعات صغيرة من الأهالي منحها بعض الأراضي للإقامة فيها نظير قيامها بحماية الجنود والمسافرين ، والمحافظة على الأمن في المناطق المحيطة بها والمحافظة على بعض النقاط الهامة .

وبعد أن اتسع نطاق إيالة الجزائر تم تقسيمها إلى عدة ولايات وهي :

- ولاية الجزائر وكانت تسمى دار السلطان ، وتشمل مدينة الجزائر وضواحيها وترتبط بالدائى مباشرة .
- ولاية الجنوب وكان يحكمها باى وعاصمتها الميمنية وكانت أصغر الولايات .
- ولاية الغرب وكان يحكمها باى وعاصمتها مازونه ثم نقلت بعد ذلك إلى مدينة معسكر ثم إلى وهران .
- ولاية الشرق وكان يحكمها باى وعاصمتها قسطنطينة وتمتد حتى حدود تونس .

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى عام ٩٩٥هـ ١٥٨٧م وبعدها أرسلت الدولة العثمانية إلى الجزائر ولاية يحملون لقب باشا كان الواحد منهم يعين لمدة ثلاث سنوات ، ثم تغير ذلك النظام في عام ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م بما أطلق عليه مرحلة الأغوات وأعقبه مرحلة الدايات في عام ١٦٧١م الذى استمر حتى وقعت الجزائر في قبضة الاحتلال الفرنسى عام ١٨٣٠ م .

وبالنسبة للنظام القضائى فقد كان جزءاً من التنظيم القضائى للدولة العثمانية الذى بدأ بشيخ الإسلام ، واثنين من قضاة العسكر . وقد عين قاضيان بالجزائر أحدهما للمذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة العثمانية ،

والآخر للمذهب المالكي الذي كان يسير عليه معظم سكان شمال أفريقيا .
كما وجد المجلس الشرعي الأعلى الذي يتألف من قاضيين ومفتيين على
المذهبين المذكورين . وأحد المشايخ للنظر في شئون الأوقاف وممثل
للحكومة ، وكانت مهمة هذا المجلس تتحدد في مراجعة أحكام القضاء ،
والنظر في المنازعات الكبرى وكان مقره بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة ،
ويحضر الحاكم اجتماعاته غالبا .

٢- أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الحكم العثماني

وبالنسبة للنواحي الاقتصادية فلم يكن للدولة العثمانية أثر ملموس في
ذلك فلم تتدخل في تحسين وسائل الزراعة البدائية أو في العمل على الوقاية
من الكوارث الطبيعية والأوبئة أو الاهتمام بالمجاري المائية بل تركت الأمور
على حالها ، وإلى جانب ذلك فقد كان لارتفاع نسبة الضرائب على الفلاحين
أكبر الأثر في عدم استغلال الأراضي الصالحة للزراعة ويقال نفس الشيء
عن التجارة . حقيقة كان هناك ازدهار محدود في هذا القطاع الذي تمثلت
أنشطته في المبادلات التجارية المحلية بالأسواق ، وفي التبادل التجاري مع
المدن الحدودية في تونس والمغرب ، ولكن التبادل التجاري الخارجي كان
مخيما عليه حركة الكساد نظرا لوقوف الدول الأوروبية في وجه حركته
التجارة الجزائرية بالمرصاد ، هذا إلى جانب عدم اهتمام الدولة بإنشاء
الموانئ الصالحة للتجارة ، وبالنسبة للنظام النقدي في الجزائر فقد أصدرت
الجزائر سكاتها باسم السلاطين العثمانيين إشارة إلى التبعية والولاء . فقد سك
في الجزائر أنواع مختلفة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية وإلى جانب
النقود العثمانية فقد اتبع نظام الأوزان والأطوال والمقاييس والمكاييل العثمانية
مثل القنطار والأقة ، والأوقية ، والدرهم ، والمثقال الذهبي والذراع القياسي
وغیره .

وبالنسبة للصناعة فقد وجد بالجزائر صناعات مختلفة منها صناعة النسيج ، ودباغة الجلود ، وصناعة السجاد ، وصناعة الأحذية ، وصياغة الذهب ، والصناعات الخزفية .

٣- الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى :

أما عن الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى فقد طبعت بالطابع الإسلامى فقد ارتبط التعليم والقضاء والعلاقات الاجتماعية والفكرية بالنظام الإسلامى فكان التعليم منتشرا فى أوساط القرى والريف عن طريق المساجد والزوايا التى كانت تعمل من الأوقاف التى يهبها أهل الخير والصالح إلى جانب ذلك فقد كان هناك ما يسمى "الشرعية" وهى الخيمة التى تنصب فى القرية لتعليم أطفالها ، وكان هناك أيضا الكتاب أو ما يسمى (مسجد) وهى تحريف لكلمة مسجد وكان يقد عليه الأطفال من ذكور وإناث وتركز التعليم على القرآن الكريم ، والحديث والعلوم العربية والإسلامية . وإلى جانب ذلك فقد بنى الأتراك بعض المدارس ومع كل ذلك فإنه يمكن القول أن الجزائر عانت مثل بقية بلاد المسلمين من تأخر علمى ، وعدم القدرة على الإبداع حيث انحصر الجهد العلمى فى الحفظ ، وكتابة الشروحات والحواشى والتعليقات دون أن تظهر ملكة الإبداع ، كما أهملت العلوم العقلية مثل الكيمياء والطب والفيزياء وغيرها .

ومما سبق يتضح أن الوجود العثمانى فى الجزائر لم يكن فى يوم من الأيام وجودا إستعماريا بل هو وجود اقترنت بدايته بظروف دولية اقتضت ضرورة استئجاد الجزائر بالعثمانيين فى بداية القرن السادس عشر لاتقاء خطر الهجمة الصليبية على بلادهم . كما يتضح روح المواجهة والاستبسال التى تجسدت فى عروج وأخيه خير الدين خلال الوقوف أمام عنف الهجمة انصليبية على منطقة المغرب ، وعجز واهتراء الكيانات السياسية المحلية التى كانت موجوده والتى لم تنبر للتصدى لهذا الخطر وإنما حاول بعضها

التواؤم معه خدمة لأغراضها الذاتية وتفضيلها مصالحها الشخصية على المصلحة العامة .

وإلى جانب ذلك فقد أدت البحرية الجزائرية دورا هاما فى الدفاع عن الجزائر ، وقامت بمهمتها تاريخيا على أكمل وجه ، وفى أروع صور التضحية والفداء ليس من أجل الجزائر فحسب وإنما كذلك من أجل الدفاع عن الإسلام ، والوقوف فى وجه التسلط والسيطرة الأوربية .

وعندما اختلت موازين القوى ، وتخلف الجزائر عن الركب وعجز عن المشاركة فى السباق انعكس ذلك سلبيا على قوتها العسكرية المتمثلة فى البحرية مما أدى فى النهاية إلى عدم القدرة على المحافظة على أمن البلاد ، وانتهى الأمر بالأزمة التى اندلعت بين الجزائر وفرنسا فى عام ١٨٢٧ والتى انتهت بالاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠ .